البيان بلا لسان

دراسة في لغة الجسد

الدكتور مهدي أسعد عرار

أستاذ اللسانيات والعلوم اللغوية

رئيس دائرة اللغة العربية وآدابها بجامعة بيرزيت

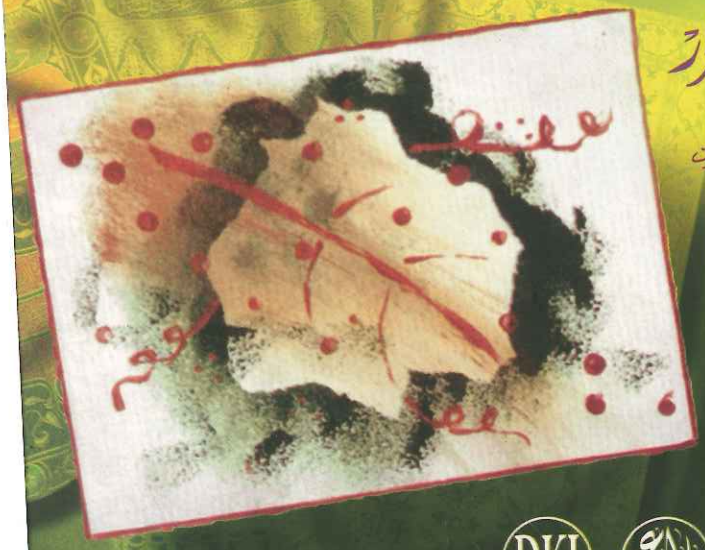

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

"مِنَ الصَّوْتِ إلى الصَّمْتِ"[1]

نهاد الموسى

كُنّا نَحْتَفي بِتَعْريفِ ابنِ جِنّي لِلّغَةِ أنّها "أصْواتٌ يُعَبِّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أغْراضِهِمْ"، وَكُنّا نَرى لِهذا التَّعْريفِ بُعْدًا براغماتِيًّا؛ إذْ إنّهُ يُؤَسِّسُ عَلى نَحْوٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ عقْدًا وَثيقًا بَيْنَ "الخِطابِ" وَ"المَقاصِدِ"، وَكُنّا نَراهُ بِهذا التَّعْريفِ يَروقُ البِنْيَويّينَ مِنْ جِهَةِ أنّهُ عَوّلَ في التَّعْريفِ عَلى المَظْهَرِ المَنْطوقِ حينَ جَعَلَ اللّغَةَ أصْواتًا، وَذلِكَ شَأنُهُمْ في عَدَمِ الاعْتِدادِ بِالمَظْهَرِ المَكْتوبِ، وَاحْتِجاجِهِمْ بِأنَّ اللّغاتِ تُدووِلَتْ أزْمانًا قَبْلَ أنْ توضَعَ لَها نُظُمٌ كِتابِيّةٌ، وَلكِنّهُ يَتَجاوَزُهُمْ إذْ يُغْلِقونَ أبْوابَ الدَّرْسِ اللّغَوِيِّ عَلى النَّظَرِ في اللّغَةِ بِذاتِها لِذاتِها، وَيَجْعَلونَ وُكْدَهُمْ أنْ يَسْتَبْطِنوا نِظامَها الدّاخِليَّ فَحَسْبُ.

وَحَقًّا أنَّ رَجْعَ النّظَرِ في هذا التَّعْريفِ المُجْمَلِ يَجْعَلُهُ مَجازًا في شَطْرِهِ الأوَّلِ؛ ذلِكَ أنَّ ابنَ جِنّي قَدِ اجْتَزَأَ بـ"الأَصْوات" عَنْ سائِرِ الأَنْظِمَةِ التي تَأتَلِفُ مِنْها البِنْيَةُ اللّغَويّةُ.

وَكَأنَّ ابنَ جِنّي اكْتَفى "بِالجُمْلةِ" وَسَكَتَ عَنِ "التَّفْسيرِ" –إذا اسْتَعَرْنا عِبارَةَ الجاحِظِ– وَلَمْ يَكُن ابنُ جِنّي بِغافِلٍ عَنْ أنَّ الأصْواتَ تَتَشَكّلُ عَلى أنْحاءٍ مَخْصوصَةٍ مِنْ تَبادُلِ التّأثّرِ وَالتّأثيرِ، وَأنّها تَتَمَظْهَرُ في أبْنِيَةٍ مَخْصوصَةٍ وَهُو صاحِبُ "سِرّ الصّناعَةِ"، وَصاحِبُ "التّصريف المُلوكِيّ"، وَلَمْ يَكُنْ بِغافِلٍ عَنْ أنّها تَتَّخِذُ سَمْتَها في النَّحْوِ الذي هُوَ –عِنْدَهُ– انْتِحاءُ سَمْتِ العَرَبِ في كَلامِها، وَلكِنَّ اقْتِصارَ ابنِ جِنّي في تَعْريفِ اللّغَةِ عَلى أنّها أصْواتٌ يَجْعَلُ تَعْريفَهُ مَجازِيًّا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

وَيُصْبِحُ مُقْتَضى رَدِّ هذا التَّعْريفِ إلى الحَقيقَةِ أنَّ ثُلُثَ اللّغَةِ أوْ قَريبًا مِنْهُ هُو

---

(1) هذه عبارة محولة عن العنوان الذي اتخذه إدوارد سعيد لبحثه النفيس الذي أسهم به في الكتاب التكريمي لحسام الخطيب، وحرره محمد شاهين متخذا له عنوان ذلك البحث "من الصمت إلى الصوت"، وقد اختلفت جهتا الكلام، ولكل مقام مقال.

الذي يَصْدُقُ عَلَيْهِ هذا التّعْريفُ.

ثُمَّ أَنْكَرَ كَثيرٌ مِنَ اللّسانِيّينَ العَرَبِ المُحْدَثينَ التّعْبيرَ بـ"اللّغَةِ"، وَاخْتاروا عَلَيْها "اللّسان" ظانّينَ أنّهُ أَشْمَلُ في الدِّلالَةِ وَأَوْفى؛ إِذْ كانَتِ اللّغَةُ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ الأَوائِلِ وَجْهًا واحِدًا؛ لَحْنًا خاصًّا يُناظِرُ اللَّهْجَةَ، وَلكِنَّ مُصْطَلَحَ اللِّسانِ يَقَعُ في المَجازِ أَيْضًا؛ إِذْ لَيْسَ اللّسانُ بِما هُو عُضْوٌ رَئيسٌ في جِهازِ "التَّصْويتِ" إِلاّ سَبيلاً واحِدَةً مِنْ سُبُلِ الإِبانَةِ، وَتَكونُ اللّغَةُ التي يُؤَدّيها اللّسانُ لُغَةً واحِدَةً فَحسبُ مِنْ لُغًى مُتَعَدِّدةٍ.

يَتَجاوَزُ الدّكتور مهدي في كِتابِهِ هذا ما يَنطِقُ بِهِ الصّوتُ؛ إِذْ يَفتَحُ لِلبَيانِ أَبْوابًا يَسْتَنْطِقُ بِها الصَّمْتَ، وَيَتَجاوَزُ ما يُنْبِئُ عَنْهُ اللّسانُ مُسْتَقْرِيًا ما يُفْصِحُ عَنْهُ الوَجْهُ، وَالعَيْنانِ، وَاليَدانِ، وَكُلُّ بَنانٍ، وَكُلُّ ما اخْتَلَجَتْ بِهِ القَدَمانِ.

وَهُوَ يُسْعِدُنا بِتَأْويلٍ لَطيفٍ لِبَيْتِ المُتَنبّي الذي قَدّمَ غُرْبَةَ الوَجْهِ وَاليَدِ عَلى غُرْبَةِ اللّسانِ وَهو في شِعْبِ بَوّان.

وَيُصْبِحُ تَعْريفُ الإِنْسانِ التَّقْليدِيُّ بِأَنّهُ حَيَوانٌ ناطِقٌ مُحْتاجًا إِلى تَأْويلٍ يُخْرِجُ النّطْقَ مِنَ اخْتِصاصِهِ بِاللّسانِ إِلى سائِرِ ما يَنْطِقُ بِهِ كِيانُ الإِنْسانِ، وَيَغْدو الإِنْسانُ ناطِقًا بِصورَتِهِ وَحَرَكَتِهِ عَنْ هيولاهُ.

وَيَنْضافُ إِلى مَزايا هذا العَمَلِ بُعْدٌ تَعْليمِيٌّ جَديدٌ، فَقَدْ جَرى المُشْتَغِلونَ بِتَعْليمِ اللّغَةِ أَنْ يَتَمَثّلوا "أداءَها" في مَهاراتٍ أَرْبَع تَنْتَمي جَميعًا إِلى البِنْيَةِ اللّغَويّةِ، وَهِيَ القِراءَةُ صامِتةً وَجاهِرَةً، وَالاسْتِماعُ، وَالتَّعْبيرُ الكِتابِيُّ، وَالتَّعْبيرُ الشّفَويُّ، وَلكِنَّ انْفِتاحَ المَشْهدِ المُعاصِرِ، وَاقْتِرانَ الخِطابِ اللّغَويِّ بِالصّورَةِ وَالحَرَكَةِ، جَعَلَهُمْ يَسْتَضيفونَ مَهارَةً خامِسَةً لازِمَةً هِيَ مَهارَةُ المُشاهَدَةِ، وَذلِكَ مُنْبِئٌ عَنْ دَوْرِ "غَيْرِ اللّغَويِّ" في اسْتِكْمالِ المَهاراتِ اللّغَويّةِ بِالبُعْدِ الإِضافِيِّ المُسْتَفادِ بِالصّورَةِ وَالحَرَكَةِ.

وَإِذا كانَ الذينَ اسْتَضافوا هذِهِ المَهارَةَ يَرْكَنونَ إِلى مَلاحِظَ سيمْيائِيّةٍ وَإِخْراجِيّةٍ شَتّى فَإِنَّ عَمَلَ الدّكتور مهدي يُمَثّلُ في هذِهِ السَّبيلِ مَرْجِعًا تَأْصيلِيًّا مَنْهَجِيًّا مُسْتَوْعِبًا لأَبْعادِ هذِهِ المَهارَةِ.

وَيَجْري الدّكتور مهدي في كِتابِهِ عَلى نَهْجٍ واضِحِ المَعالِمِ، ثُمّ يُقيمُهُ عَلى نَحْوٍ مُوَطَّأِ الأَساسِ، مُوَطَّدِ الأَرْكانِ، مُحْكَمِ البُنْيانِ، يُجَسّدُ المَأْثورَ عَنِ الخَليلِ في تِلْكَ الدّارِ التي يَنْكَشِفُ لِمَنْ يَجوسُ خِلالَها عَنْ وُجوهِ الحِكْمَةِ في تَفاصيلِ بِنائِها.

حَقًّا أنَّ لُغَةَ الجَسَدِ قَدْ غَدَتْ عُنْوانًا مُتداوَلاً مَعْروفًا، وَلكِنَّ عَمَلَ الدّكتور مهدي يُمَثّلُ إضافَةً مُتَفَرِّدَةً إلى هذا الحَقْلِ، وَذلِكَ بِما اسْتَجْمَعَ فيهِ مِنْ مَقولاتِ المُحْدَثينَ، وَما اسْتَقْراهُ مِنْ أنْظارِ الأَوائِلِ، وَما نَقَّبَ عَنْهُ مِنَ الوَقائِعِ في التّراثِ وَلَدى الآخَرِ.

وَكَأنَّ الدّكتور مَهْدي يومِئُ بِكِتابِهِ هذا لِلذينَ رَكَنوا إلى قَوْلِ الأَوّلِ: "ما تَرَكَ الأَوّلُ لِلآخِرِ شَيْئًا" إيماءَةً تَقولُ (دونَ أنْ تَقولَ): كَمْ تَرَكَ الأوّلُ لِلآخِرِ!!

مَنْ يَقْرَأُ كِتابَ الدّكتور مَهْدي هذا تَتَنازَعُهُ مُتْعَتانِ: مُتْعَةُ قِراءَةِ النّصِّ بِأَلَقِ عِبارَتِهِ، وَلُطْفِ تَأَتّيهِ في اسْتِجْلاءِ الفِكْرَةِ، وَطَرافَةِ مُنْطَوَياتِهِ مِنَ الأَنْظارِ وَالوَقائِعِ، وَمُتْعَةٌ حادِثَةٌ مِنَ الإحْساسِ بِالكَشْفِ تُنازِعُهُ وَتُحَرِّضُهُ أنْ يَخْرُجَ مِنَ النّصِّ الأصْغَرِ (كِتاب اللّسانِ)، إلى النّصِّ الأكْبَرِ (كِتاب الإنسانِ) يَتَقَرّى فيه الوُجوهَ، وَالعُيونَ، وَحَرَكاتِ الأَيْدي، وَضُروبَ المِشَى.

وَيُصْبِحُ عالَمُ الشَّهادَةِ كُلُّهُ جَميعًا نَصًّا مَفْتوحًا شائِقًا.